اللغة العربية و دعوات التيسير بين واقع التأصيل و طموح الحداثة

originality and the ambition for The Arabic Language and The Calls for Lightening Between modernity

La langue arabe et les appels pour la péréquation entre originalité et modernisme

د.وردة مسيلي

جامعة قسنطينة (01) (الجزائر)

Abstract:

Grammar is one of the Most important pillars of the standard Arabic. Due to its intellectual richness , it promotes it to a higher pragmatic degrees because of its communicative nature which is very needed among persons.

Because of its vital necessity in both communication and speech or language , a large group of linguists do not stop calling for keeping the ancient methods and the modernization of these methods in the same time through which other syllabus and methods are reinforced.

This study intends to put a spot light on the movement and the efforts of the lightening of grammar which is considered

Key words: Arabic Language, Lightening, originality, modernity

Résumé:

La grammaire est le plus important pilier de la langue académique, grâce a sa richesse cette langue a atteint les cercles pragmatiques produit par ses sujets de nature purement communicationnelle lies étroitement aux interlocuteurs. pour sa nécessité vitale concernant la communication et la langue parlée, un large groupe de linguistes appellent incessamment pour garder les méthodes classiques pour une éventuelle modernisation visant une qualité meilleure des études spécialisées .

Cette étude vise essentiellement le suivi du mouvements et des efforts fournis par les linguistes pour l'allégement de cet élément fondamental de la langue qu'est la grammaire.

Mots clés : La langue arabe ,les appels, la péréquation ,originalité ,modernisme.

الملخّص:

يعد مبحث النحو العربي من أهم المرتكزات التي تتوكأ عليها اللغة العربية الفصيحة و قد ارتقي علم العربية "النحو" بفضل كثافته الفكرية إلى مصاف الدوائر التداولية التي تشكّلها موضوعاته بوصفها ذات طبيعة تواصلية بحتة بحيث تتصل اتّصالا وثيقا بالمتخاطبين، و لهذا تعالت أصوات اللغويين منذ القديم منادية بضرورة العناية بهذا الفرع اللغويّ الحسّاس و ذلك بتقويم مناهجه القديمة و استحداث مناهج أخرى تتعزّز من خلالها الدراسات النحوية المتخصّصة من هذا المنطلق ستسعى الباحثة إلى الإلمام بشتات هذه المحاولات ممثلة في استقصاء و تتبّع حركيّة جهود التيسير في عنصر مهمّ من عناصر الإفصاح و هو النحو العربي باعتباره خيطا متينا من نسيج اللغة و المشكّل معظم العملية التبليغية.

الكلمات المفاتيح: اللغة العربية،التيسير،التأصيل، الحداثة

يعد مبحث النحو العربي من أهم المرتكزات التي تتوكأ عليها اللغة العربية الفصيحة و قد ارتقي علم العربية "النحو" بفضل كثافته الفكرية إلى مصاف الدوائر التداولية التي تشكّلها موضوعاته بوصفها ذات طبيعة تواصلية بحتة بحيث تتصل اتّصالا وثيقا بالمتخاطبين، و لهذا تعالت أصوات اللغويين منذ القديم منادية بضرورة العناية بهذا الفرع اللغويّ الحسّاس و ذلك بتقويم مناهجه القديمة و استحداث مناهج أخرى تتعزّز من خلالها الدراسات النحوية المتخصّصة و في هذا الصّدد يقول محمد عيد : " ليس هناك علم من العلوم قد نال من العناية ما ناله النحو العربي قديما و حديثا ، فمنذ القرن الأوّل الهجري و المجهودات العلمية تتوالى في هذا العلم حتى العصر الذي نعيش فيه" من هذا المنطلق ستسعى الباحثة إلى الإلمام بشتات هذه المحاولات ممثلة في استقصاء و تتبّع حركيّة جهود التيسير في عنصر مهمّ من عناصر الإفصاح و هو النحو العربي باعتباره خيطا متينا من نسيج اللغة و المشكّل معظم العملية التبليغية التي تختار معطياتها من داخل الكينونة اللسانية و تصوغ خصوصياتها من بطن واقع الاستعمال الواسع أيضا .

من خلال هذا الطرح تتهيأ لنا قراءة أفقية لمعالم النحو العربي الذي تتجاذبه قوّتان عنيفتان ؛ قوّة واقع التأصيل و قوّة طموح الحداثة الموحيتان بتحقيق أهداف شتّى عامّة و خاصّة :

أمّا الأهداف العامّة فتتمثّل فيما يأتي:

- محاولة إثبات أنّ النحو في كل الثقافات الإنسانية من أخصب النشاطات الفكرية التي اتخذت اللغة مجالا للدراسة و البحث.

- تعريف مصطلح النحو كما ورد في كتب النحويين مفيد للدارس . إذ يعدّ ضربا من المقدمة التي تصور حقيقة مكونات النظرية النحوية؛ فالنظر في الميراث العربي ناطق برؤية نموذجية للحدث اللساني يمكن الكشف عن أهدافها التطبيقية من خلال تعدد القراءة لمصطلح " النحو" الذي عرف عند العرب القدامى زخما اصطلاحيا حيث أطلق عليه عدة مصطلحات هي العربية، الإعراب اللحن، قبل أن تستقر تسميته نحوا.

- بيان الوظيفة الاضطلاعية للنحو كمعيار دقيق تقاس به الكلمات أثناء وضعها في الجمل و هو بذلك عماد اللغة و له الفضل في التمييز بين دلالات التراكيب اللغوية و بدونه يجهل السامع المعنى المراد إذ أركان علوم اللسان أربعة: اللغة، و النحو، و البيان و الأدب، و إن الأهم المقدم منها النحو إذ يُبيَّن به أصول المقاصد بدلالة، فيعرف الفاعل من المفعول، و المبتدأ من الخبر و لولاه لجهل أصل الإفادة. فهو إذن مصحّة ينتعش فيها اللسان العربي و يكتسب مناعة ضدّ رطانة اللحن و الخطأ.

أمّا الأهداف الخاصّة فنذكر منها :

- إبراز حقيقة عجز اللسان العربي عن توظيف قواعد النحو في الحديث و الكتابة ممّا أكّد العمل على تيسير النحو العربي.

- المكانة المرموقة و المتميّزة التي يحتلّها التراث النحوي في الثقافة العربية ممّا سوّغ إصلاح النحو و تيسيره إذ بات مشغلا بارزا من مشاغل المثقفين العرب في العصر الحديث و المعاصر، لاسيما بعد النتائج الإيجابية التي حققتها الدراسات اللغوية الحديثة على صعيد البحث اللساني النظري و التطبيقي.

إن هذا الوضع القلق، الانطباعي التراكمي قد أفرز ظاهرة خطيرة لا تهدّد الجانب التداولي و التعليمي من العربية فحسب و إنما تتعدّاهما إلى التأثير في الكيان اللغوي في العالم العربي الحديث كلّه على صعيد المشهدين التعليمي التربوي و الفكري الحضاري.

إنّ الدعوة باتت ملحّة إلى جعل الموروث اللغوي و خاصّة المباحث النحوية مدوّنة في غاية الأهميّة لإنجاز البحوث الميدانية بمختلف مقارباتها العلمية ، و من هذا المنطلق صار لزاما على الجامعات العالميّة الاهتمام بهذا الحقل المعرفي باستحضاره في تخصّصاتها بشتى أشكاله سواء أكان مخطوطا أم مطبوعا طباعة حجرية أم رقمية و تشجيع

الباحثين على ذلك و التأكيد على قيمة هذا المتن في دراسة التحوّلات اللغوية و الفكرية و الاجتماعيّة و الاستماع إلى ثقافة المجتمع العربي و هي تتشكّل.

مفهوم النحو في الثقافة اللغوية العربية

يعدُّ النحو في كل الثقافات الإنسانية من أقدم الممارسات الفكرية التي تناولت اللغة بالدراسة و التحليل. و تعريف مصطلح "النحو" كما ورد في كتب النحويين مفيد للدارس قبل أن يتعرض لمختلف إجراءات المقاربة الوظيفية و كيفية قراءتها للمنظومة النحوية العربية؛ إذ إن تعريف مفاهيم النحو يعدّ ضربا من المقدمة التي تصور حقيقة مكونات النظرية النحوية؛ فالنظر في الميراث العربي ناطق برؤية نموذجية للحدث اللساني يمكن الكشف عن أهدافها التطبيقية من خلال تعدد القراءة لمصطلح " النحو" الذي عرف عند العرب القدامى زخما اصطلاحيا حيث أطلق عليه عدة مصطلحات هي العربية، الإعراب اللحن، قبل أن تستقر تسميته نحوا[1].

ففي الثقافة اللغوية العربية القديمة، أصل كلمة "نحو" من " الفعل نحا" و تعني القصد و الطريق قال أبو البقاء العكبري (538-616 هـ):«اعلم أن النحو في الأصل مصدر (نحا ،ينحو) إذا قصد »[2]. و يعرِّف ابن جني النحو بقوله: «هو انتحاءُ سَمْت كلام العرب في تصرفه من إعراب و غيره كالتثنية و الجمع و التحقير و التكسير و الإضافة و النسب و التركيب و غير ذلك»[3]

ويبدو للدارس أن هذا النص التعريفي يقدم للنحو مفهوما يمتزج فيه الإعراب بالضرب الثاني من المعرفة النحوية أي التصريف مع التمثيل لما يتكون منه علم النحو. أما قوله: "وغير ذلك" فهي عبارة تصور ما يمكن أن ينظر فيه علم النحو ويشمله من مواضيع[4]

و يعرِّف الباحث اللساني عبد الرحمن الحاج صالح النحو فيقول: «النحو العربي هو قبل كل شيء أصول أو قوانين تضبط التراكيب السليمة »[5] أما عبد السلام المسدي فيرى أن للنحو مفهوما مزدوجا فهو « يعني في نفس الوقت جملة النواميس الخفية المحركة للظاهرة اللغوية كما يعني عملية تفسير الإنسان لنظام اللغة »[6]

يعد النحو من مستويات النظام اللساني و هو وسيلة تعين الدارس على معرفة القواعد للاستناد إليها في ممارسة اللغة؛ و معنى ذلك أن النحو يدرس في ظلّ اللغة و هو يقوم على مستويين:

- تدريس النحو لتعليم اللغة ذاتها.
- تدريس النحو للتعريف بالقواعد اللغوية.

و الذي يهمّنا في هذا المجال هو تدريس النحو من أجل الإحاطة بالقواعد اللغوية و هو مجال الدراسة التخصصية لطالب اللغة العربية عموما؛ فهو ملزم بدراسة النحو لفهم اللغة وإدراك خصائص تركيبها ، و درس النحو

---

[1]- زهيرة قروي: المرتكزات المعرفية للفظ النحو في خلفيات التفكير العربي، مجلة كلية الآداب، جامعة حلوان، العدد 30، 2011، ص154.

[2]- أبو البقاء العكبري: اللباب في علل البناء و الإعراب، تح غازي مختار طليمات، دار الفكر العربي المعاصر، بيروت- لبنان، ط1، 1995، ج1، ص40

[3]- ابن جني أبو الفتح عثمان: الخصائص، تح محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، 1995، ج1، ص 34.

[4]- زهيرة قروي: المصطلحات الصوتية و النحوية عند البصريين في ضوء اللسانيات الحديثة، أطروحة دكتوراه دولة في اللسانيات، جامعة 01 قسنطينة، الجزائر،2007، ص 243.

[5]- الحاج صالح (عبد الرحمن): المدرسة الخليلية الحديثة و مشاكل علاج العربية بالحاسوب، محاضرة مرقونة – ألقيت بملتقى اللسانيات بكلية التربية بجامعة الرباط / المغرب /، 1990، ص21.

[6]- عبد السلام المسدي: الفكر العربي و الألسنية، اللسانيات و اللغة العربية، مركز الدراسات و الأبحاث الاقتصادية و الاجتماعية / تونس /، ع(04)، 1985، ص14.

بدوره يرتكز على القواعد التي تحتكم إليها أساليب اللغة لأن الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الـذي يفتحها و أن الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها[7].

إنّ لغة من اللغات لا تطابق لغة أخرى من جميع جهاتها بحدود صفاتها في أسمائها و أفعالهـا و حروفهـا ، و تأليفها و تقديمها و تأخيرها و استعارتها و تحقيقها ، و تشديدها و تخفيفها ، و سعتها و ضيقها ، و نظمها و نثرها و سجعها ، و وزنها و ميلها ، و غير ذلك مما يطول ذكره ، و ما أظنّ أحدا يدفع هذا الحكم أو يشكّ في صـوابه ممـن يرجع إلى مسكة من عقل أو نصيب من إنصاف فمن أين يجب أن تثق بشيء ترجم لك على هذا الوصـف – وصـف المنطق- بل أنت إلى تعرّف اللغة العربية أحوج منك إلى تعرّف المعاني اليونانية ، على أنّ المعاني لا تكون يونانيـة و لا هندية ، كما أنّ اللغات تكون فارسية و عربية و تركية [8] .

لكنّ بعض النحاة و منهم أبي سعيد السيرافي قد اقتنعوا بما ترجم لهم من هذا الوصف المنطق و المعاني فأقحموا في دراسة اللغة ما ليس منها من العقلية و المنطقية. و قد نمت محايثة لهذا الوصف المصطلحات التي تدلّ بمعناها على الكثرة و هي : القياس ،و المطّرد ،و الغالب ،و الكثير ،و الأكثر ،و المتئلب ، وأخرى تدلّ على معاني القليل، و الأقـلّ ،و الشاذّ ،و النادر ،و المسموع.

ليس هناك مدرستان متمايزتان من ناحية التفكير اللغوي و إنّما هناك مدرسة بالبصرة تنتقد الشعر المسموع بكلّ احتراس ، و ترفض منه ما لا يتناسب مع المستوى المقبول على حين يقبل الكوفيون كلّ ما سـمعوا ، و يقـال إنّهـم استعملوا كثيرا من الشعر المنحول، و يذهب البعض الآخر إلى أنّ البصريين ينتصرون للقياس بينما يحـتكم الكوفيـون للسماع بحيث يقيمون القاعدة على الشاهد الواحد.

و قد أرست المدرستان مرتكزات تأصيلية لتوصيف الظاهرة النحوية باعتبار المعتقدات الفكرية التي تبناها أئمتها و مشايخها و تمثّلت هذه الأخيرة في :

أ - التحديد الزمكاني للنصوص اللغوية : حدّد النحاة فترة الاستشهاد اللغوي الصحيح بحوالي منتصف القـرن الثـاني الهجري بالنسبة للحضر ، و أواخر القرن الرابع الهجري بالنسبة للبادية ، و جعلوا الاستشهاد الصـحيح مـن الوجهـة النظرية محصورا في القرآن الكريم و الحديث الشريف ، و شعر العرب و نثرهم كما انتخبوا بعض القبائل التـي يُعتـدّ بأقوالها من حيث قيمة الاستشهاد وهؤلاء هم قيس و تميم و أسد ممن اتكل عليهم في الغريب و الإعراب و التصريف ثمّ هذيل و بعض كنانة و بعض الطائيين[9].

يقرّر الدارسون بأنّ نحو كلّ لغة من اللغات يحتوي قدرا يزيد أو ينقص من الأسـماء و الأفعـال الشـاذّة و تسمّى أيضا بالصيغ القوية في مقابل الصيغ الضعيفة أو العليلة التي تستسلم للتنظيم الـذي يفرضـه القيـاس و تـدين بمقاومتها إلى شيوع استعمالها الذي يُبقي عليها حيّة في الذّهن لا يطيق لها تغييرا ؛و قد اجتهد اللغويون العـرب فـي تكريس هذه السمة و ترسيخها في العقول و في هذا المقام يروي أبو حيان التوحيدي أنّ أعرابيا وقـف علـى مجلـس الأخفش فسمع كلام أهله في النحو و ما يدخل معه ، فحار و عجب و أطرق و وسوس ، فقال له الأخفش ، ما تسمع يا أخا العرب ، فقال : أراكم تتكلمون بكلامنا في كلامنا بما ليس من كلامنا [10] .

---

[7]- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 23-24

[8] - أبو حيان التوحيدي، الإمتاع و المؤانسة ،ج1 ، ص115- 116 .

[9]- جلال الدين عبد الرحمان السيوطي ،الاقتراح في علم أصول النحو، تح محمد حسن إسماعيل الشافعي،دار الكتب العلمية ،بيروت- لبنان،ط 1 ،1998 ص22-23.

[10]- علي بن محمد بن العباس أبو حيان التوجيدي ،الإمتاع و المؤانسة ، علق عليه محمد الفاضلي ،دار الأبحاث و النشر و التوزيع /الجزائر 2007م ج2،232 ص:139.

و ليس حتما أن يكون أبو الأسود سمّى الأبواب التي عالجها تعجبا ، أو استفهاما ، أو عطفا ، أو جمع مذكّر ..أو شيئا من هذا ، و لكنّه درس الموضوع دراسة أولية و سماه ما شاء أن يسمّيه ، و يجوز أن يكون بهذه الأسماء كما يجوز أن يكون بغيرها ؛ ثمّ مات سنة 89ه و ترك محاولاته الأولى في علم النحو بين يدي تلاميذه الذين توفّروا عليها ، و درسوها و ثقفوها ،و زادوا فيها .و كان هو و من بعده يجتهدون ، فأحسنوا أشياء ، و انبهمت عليهم أشياء ؛ و ما كان ينبهم على بعضهم لا ينبهم على غيرهم الآن . قال الفراء : " مات الكسائي و هو لا يحسن حدّ نعم و بئس ، و أن المفتوحة . و لم يكن الخليل يحسن النداء ، و لا سيبويه يدري حدّ التعجّب"[11] . و لعلّ هذا القول يشير بشيء من التلميح دون التصريح إلى أنّ أئمّة النحو قديما كانوا متفاوتين في قدراتهم المعرفية و الفكرية و المنهجية.

جاء في مقدّمة كتاب الإنصاف " إنّ مذهب الكوفيين القياس على الشاذ ، و مذهب البصريين التأويلات البعيدة التي خالفها الظاهر ؛ و اتّفقوا على أنّ البصريين أصحّ قياسا لأنّهم لا يلتفتون إلى كلّ مسموع ، و لا يقيسون على الشاذّ، و الكوفيون أوسع رواية"[12]

و جاء في شرح المفصّل : الكوفيون لو سمعوا بيتا واحدا فيه جواز شيء مخالف للأصول جعلوه أصلا ، و بوّبوا عليه ، بخلاف البصريين ، بل إنّ الكوفيين كانوا يستنبطون بعض قواعدهم بالقياس النظريّ من غير حاجة إلى شاهد ؛ بل كانوا إذا رأوا للشيء الواحد عدّة صور وضعوا لكلّ صورة قاعدة .و لذلك كثر الخلاف بين المدرستين" [13]

تمسك البصريون بصواب ما ذهبوا إليه ، و تخطئة ما عداه و لو ورد تأييد له من الشواهد العربية ، بل و لو كان المتكلّم عربيا فصيحا يُحتجّ بكلامه . قال رجل لأبي عمرو بن العلاء : أخبرني عما وضعت مما سميت عربية، أيدخل فيه كلام العرب ؟ قال : لا . قال : كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب و هم حجّة ؟ قال: أحمل على الأكثر، و أسمّي ما خالفني لغات. و من مظاهر الخلاف نسوق المثال الآتي: نداء ما فيه أل:

رأي البصريين : لا يجوز نداء ما فيه أل.

السبب : الألف و اللام كلمة تفيد التعريف و يا حرف نداء يفيد التعريف أيضا . و لا يصحّ اجتماع معرّفين على معرّف واحد ، يا زيد؛ بل يُعرّى عن تعريف العلمية ، و يُعرّف بالنداء لئلا يجمع بين تعريف النداء و تعريف العلمية ؛ و إذ لم يجز الجمع بين تعريف العلمية و تعريف النداء لم يجز الجمع بين تعريف النداء و تعريف الألف و اللام ، بل هذا أولى بعدم الجواز ؛ لأنّ تعريف النداء بعلامة لفظية ،و تعريف الألف و اللام بعلامة لفظية ، و إذ منع اجتماع معرّفين بعلامتين إحداهما لفظية-و هي النداء- و الأخرى غير لفظية – و هي العلمية – فاجتماع معرّفين لفظيين أولى بالمنع .

رأي الكوفيين[14] : يجوز نداء ما فيه الألف و اللام ؛ نحو: يا الرجل ، يا الغلام

السبب : سماع ، و قياس :

السماع : ورد في كلام العرب قول الشاعر :

فيا الغلامان اللذان فرّا إياكما أن تكسياني شرّا

و قول الآخر :

فديتك يا التي تيّمت قلبي و أنت بخيلة بالودّ عني

---

[11] - محمد أحمد برانق، النحو المنهجي ، مطبعة لجنة البيان العربي ، ص24

[12] - ينظر الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين و الكوفيين ، أبو البركات الأنباري ،تح: محمد محيي الدين عبد الحميد،ط4 ،دار إحياء التراث العربي1961م،ص؟

[13] - ينظر إبن يعيش موفق الدين ، شرح المفصّل ،تح: الدكتور فخر الدين قباوة ،ط1 ،المكتبة العربية ،حلب سوريا 1983م،ص:؟

[14] 233 - ينظر النحو المنهجي ،محمد أحمد برانق، مطبعة لجنة البيان العربي،ص 33

القياس: يدلّ على صحّة ذلك أنّهم أجمعوا على أنّه يُقال في الدّعاء :

يا الله ، اغفر لنا و ارحمنا .

ردّ البصريين :

أ- قولهم : فيا الغلامين ....

مردود ؛ لأنّ التقدير : فيأيها الغلامين ....

ب – قولهم : فديتك يا التي تيّمت.....

مردود ؛ لأنه قليل ، و يجيء في الشعر خاصّة ، فلا حجّة فيه . و إن كان سهّل ذلك لزوم الألف و اللام في التي فهي لا تنفصل عنها ، و لا سبيل إلى حذفها ، فنزلت منزلة بعض الحروف الأصلية من الكلمة ، فسهُل دخول حرف النداء عليها.

ج – و أما قولهم : يا الله...

فمردود؛ لأنّ الألف و اللام عوض عن همزة إله ، فنزّل منزلة حرف من نفس الكلمة ، فجاز أن يدخل عليه حرف النداء .و لأنّ هذه الكلمة كثُر استعمالها فلا يُقاس عليها.

ب - **نظرية العامل**: فرض النحاة أنّ حركات الإعراب آثار، و هذه الآثار لا بدّ لها من مؤثّرات . ثمّ بحثوا في هذه المؤثرات.فعثروا عليها ، و سمّوها عوامل ، و وجدوا أنّ العوامل التي تعمل النصب و الجزم و الجرّ عوامل لفظية ، و أنّ التي تعمل الرّفع عوامل لفظيّة أو معنوية .و اهتمّ النحاة بالعوامل اهتماما كبيرا ،و قسّموا أبواب النحو متأثّرين بهذه العوامل ثمّ عنونوا كل باب بعنوان يفيد أنّ العوامل هي الأسس التي تدور حولها الدراسة[15] .

إنّ نظرية العامل هي التي اضطرّت النحاة اضطرارا إلى أن يحذفوا ويقدّروا، و يضمروا إضمارا جائزا أو واجبا و قد ركبوا من أجل فرضهم العامل في كثير من المسائل مركبا شططا نورد لذلك أمثلة بسيطة:

الكتاب في الحقيبة .

العصفورة فوق الشجرة.

فالجار و المجرور في الجملة الأولى، و الظرف في الجملة الثانية – تمّ بهما الكلام ، و لكن النحاة يفرضون لكلّ جار و مجرور ، و لكلّ ظرف متعلّقا من فعل أو مشتق ، فيتكلّفون ذلك من غير حاجة إليه؛ و يظهر ذلك في خبر المبتدأ ، و الصفة ، و الحال . مع أنّ العرب نطقوا بهذه العبارات و فهموا المراد منها فهما صحيحا سليما دون حاجة إلى تقدير متعلّق و لكن فرض النحاة أنّ الجار و المجرور و الظرف يجب أن يعمل فيهما عامل ، و لما لم يجدوه في مثل هذه الأساليب توهّموه و قدّروه ، فعقّدوا الكلام ، و أرهقوا أنفسهم ، و أرهقوا المتعلّمين من بعدهم و كان في فهم التعبير اللغوي غنى عن كلّ تقدير.

العامل الذي لا عمل له إطلاقا ، و لكن وجوده ضروري للتمهيد للعامل الحقيقي ، و العامل الحقيقي هو المتكلّم ، و قد وضّح هذا الرأي ابن جني إذ يقول " ألا تراك إذا قلت: ضرب سعيد جعفرا فإنّ ضرب لم تعمل في الحقيقة شيئا، و هل تحصل من قولك ضرب إلا على اللفظ بالضاد و الراء و الباء على صورة فعل فهذا هو الصوت ، و الصوت مما لا يجوز أن يكون منسوبا إليه الفعل – فأما في الحقيقة و محصول الحديث فالعمل من الرفع و النصب و الجرّ و الجزم إنما هو للمتكلّم نفسه لا لشيء غيره ، و إنما قالوا لفظي و معنوي ،لما ظهرت آثار فعل المتكلّم بمضامة اللفظ للفظ أو باشتمال المعنى على اللفظ "[16]

---

[15] - المرجع نفسه:ص35

[16] - محمد عيد أصول النحو العربي في نظر النحاة و رأي ابن مضاء و ضوء علم اللغة الحديث ، ط4،عالم الكتب ، القاهرة /مصر ص200

لقد كان لولاء النحويين في مختلف العصور الهجرية التي أرّخت للغة أثر قويّ في صيرورة الدرس اللغوي عموما و الدرس النحوي تحديدا ،خاصّة إذا علمنا أنّ هذا الولاء انصبّ الاهتمام من خلاله على كتاب إمام النحويين وذلك لترسيخ المرجعية العربية للتراث النحوي؛ يقول أحمد أمين: " إنّ هؤلاء النحويين كلّهم كانوا يدورون في فلك سيبويه فإن اجتهد أحد كابن مالك و أبي حيان فكالذي نسميه في الفقه اجتهاد مذهب لا اجتهادا مطلقا ، فقد وضع الخليل و تلميذه سيبويه بناء في النحو قويّ الدعائم لم يسهل هزّه و لا نقضه ، إنّما الذي خرج و اجتهد اجتهادا مطلقا هو ابن مضاء الأندلسي القرطبي[17] "

لقد كشف لنا ابن مضاء من البداية طريقه الذي اختاره في النحو من بين النحاة ، و هو طريق الرواد المتمرّدين على التبعية ، المتحمّسين لاكتشاف جديد مجهول ، و كأنما كان يسمع من وراء السنين صوت إمامه في المذهب الظاهري داوود بن علي ؛ إذ يقول : قبيح على من أعطى شمعة يستضيء بها أن يطفئها و يمشي معتمدا على غيره، فقد استحالت تلك الشمعة في خيال ابن مضاء منارا يبنيه في طريق الحقيقة ، حيث يرسل شعاعه الوهّاج للحيارى التائهين في فلسفات النحو الذهنية و مشاكله المعقّدة [18].

لقد صدق القائل ما على الناس شيء أضرّ من قولهم : " ما ترك الأوّل للآخر شيئا" ذلك أضرّ الأمور لأنّه يخنق الفكر ، و يوقف التطوّر أمّا التبعيّة الواعية ، تبعية الإفادة للانطلاق و الفهم للمعرفة و تحصيل الزاد لرحلة الكشف ، فتلك هي التبعيّة المطلوبة تطوير لا جمود ، تقدّم لا وقوف ، تجديد بعد فهم ، و ذلك الأخير هو الذي سلكه صاحبنا محذّرا من التبعيّة العمياء.[19]

في هذا الصدد يجيب ابن مضاء فيما نقله عن ابن جني في خصائصه من أنّ النحو يصحّ فيه الاجتهاد فهو علم منتزع من استقراء اللغة ومن حقّ من يرى فيه رأيا صحيحا أن يقوله ، فاللغة لا تغيّر ، و لكن الذي يغيّر هو ما يستخلصه الباحث من اللغة .

الاجتهاد في النحو مباح إذن ، لكنّها ليست إباحة مطلقة ،بل لا بدّ أن يستكمل الباحث عدّته و يأخذ أهبته ليدخل هذا الميدان الجريء ،و ينقل عن ابن جني رأيه في ذلك من أنّه لا بدّ لمن يجتهد من أن يتفهّم النحو إتقانا و يثبته عرفانا ، و لا يخلد إلى سائح خاطره و لا إلى نزوة من نزوات تفكيره فإن وصل لشيء منه قدّمه للناس في تواضع غير معازّ به و لا غاضّ من السلف رحمهم الله[20]

إنّ المتصفّح تاريخ الدراسات النحوية ليلاحظ تلك الدّعوات التجديدية التي رفع لواءها مجموعة من اللغويين و النحويين منذ العصور الهجرية الأولى و بقيت تتوالى إلى يومنا هذا ؛ و في هذا المقام لا يسعنا إلا أن نتتبّع و لو بعجالة تلك المحاولات التي أسهم بها هؤلاء المجدّدون مبرزين أهمية الدراسات النحوية في إطار المقاربات العلمية الحديثة و ما أفرزته من مناهج حيث يحتلّ التراث النحوي مكانة متميّزة في الثقافة العربية و لذلك مثّل موضوع إصلاح النحو و تيسيره مشغلا بارزا من مشاغل المثقفين العرب في العصر الحديث و المعاصر، لاسيما بعد النتائج الإيجابية التي حققتها الدراسات اللغوية الحديثة على صعيد البحث اللساني النظري و التطبيقي. و لقد بحث في هذا الموضوع و كتب فيه عددٌ كبير من العلماء و اللغويين و التربويين و عُقدت من أجله العديدُ من الندوات و المؤتمرات في شتى أنحاء العالم العربي؛ و رغم ذلك ظل مفهوم التيسير يطرح الكثير من الإشكالات و يثير الكثير من التساؤلات و بخاصة عند ناقدي التراث الذين يرون أن بالنحو العربي عيوبا تجعل إصلاحه و إعادة النظر فيه ضرورة ملحة و مهمة أساسية

---

[17] - أحمد أمين ، ظهر الإسلام ، ج 3 / ص95.

[18] - محمد عيد أصول النحو العربي في نظر النحاة و رأي ابن مضاء و ضوء علم اللغة الحديث ، ص46

[19] - محمد عيد: أصول النحو العربي في نظر النحاة و رأي ابن مضاء و ضوء علم اللغة الحديث ، ص47.

[20] - ابن مضاء القرطبي: الردّ على النحاة ، ص94. أبو الفتح عثمان بن جني ،الخصائص،تح: محمد علي النجار ، دار الكتاب العربي بيروت،ج1،ص19.

يقتضيها العصر و تتطلبها مستلزمات النهضة العربية التي صار المتعلم العربي فيها يتلقى اللغة الفصيحة صناعة و تعلما لا طبعا و اكتسابا . حيث أرجع بعضهم ذلك إلى صعوبة القواعد النحوية و تعقيدها في المجال التربوي التعليمي لأن النحو العربي – كما يقول حسن عون - «يتناول مقولات عقلية تكمن وراء الاستعمال اللغوي وهي مقولات بعيدة عن الأمور المحسة المعاينة مما أسبغ عليه بعض الجفاف الذي يحتم على من يتعلمه أن يكون مزودا بقدرة خاصة من الإدراك و سلوكا رصينا من الاستقراء »[21] و يقول حسني عبد البارى: «البنية النحوية على الحقيقة هي مجموعة من التجريدات العقلية صرفا و تركيبا و هذه التجريدات هي التي صبغت النحو بالجفاف و وسمته بالصعوبة»[22]؛ إن هذا الوضع القلق الانطباعي التراكمي قد أفرز ظاهرة خطيرة لا تهدّد الجانب التعليمي من العربية فحسب و إنما الوجود اللغوي في العالم العربي الحديث[23].

لم يكن الشعور بصعوبة القواعد النحوية وليد هذا العصر، بل قد أحسه النحاة و تنبّهوا إلى ضرورة التيسير، فكان من نتيجة ذلك أن ألّفوا قديما مختصرات كثيرة في النحو بدأت بالكسائي الذي ألّف كتابا للمبتدئين أسماه "المختصر الصغير"، ثم توالت المختصرات كمختصر أبي حيان الأندلسي و أبي علي الفارسي و غيرهم[24]؛ و لم تكن محاولة ابن مالك في التسهيل و الزجاجي في مختصره الذي سمّاه "الجمل في النحو" و الزمخشري في كتابه "المفصل في علم العربية" و غير ذلك من الملخصات و المختصرات إلا محاولات لتيسير المادة النحوية و تذليل صعابها. كما أحس غير المشتغلين بالنحو من الأقدمين بفداحة الأمر، فألّف "خلف بن حيان الأحمر البصري" رسالة أسماها "مقدمة في النحو" حاول فيها تيسير النحو على المتعلمين و تخليصه من الصعوبات الكامنة في مسائله و قواعده ليستغني المتعلّم عن التطويل و التعليل في قواعد النحو[25].

أما ابن مضاء فلقد ثار على النحو ثورة عنيفة داعيا إلى إلغاء القانون العاملي الذي فتح باب التقدير و التأويل في النحو العربي، و كان هدفه تيسير النحو و تنقيته من الفلسفات الذهنية[26].

على هذا الأساس مرّ النحو العربي بعدة محاولات للإصلاح من منهجه بغية تيسيره؛ و هذه المحاولات كانت منذ أمد بعيد.

استنادا لما سبق اتضح لنا أن الشكاوى من النحو العربي لم ترتبط بظهور اللسانيات في الثقافة العربية الحديثة بل إن التذمر و الانزعاج من صعوبة المنظومة النحوية و من جفاف أسلوب النحاة و طرائقهم في التعاطي مع قضايا اللغة -كما يقول مصطفى غلفان- قديم قدم النحو نفسه[27]؛ و لهذا فإن نظرة فاحصة لمقاربات التراث النحوي تُبيِّن لنا أن الدراسات و البحوث التي أنجزت لتيسير القواعد النحوية تنشطر إلى قسمين كبيرين حسب اعتمادها أو عدم اعتمادها علم اللسانيات في نقد التراث النحوي.

---

[21]- حسن عون: تطور الدرس النحوي، معهد البحوث و الدراسات العربية، القاهرة، 1970، ص84.

[22]- حسني عبد البارى عصر: الاتجاهات الحديثة لتدريس اللغة العربية، مركز الإسكندرية للكتاب، مصر، 2000، ص299.

[23]- ينظر نهاد الموسى: مقدمة في علم تعليم اللغة العربية، ضمن سلسلة اللسانيات في خدمة اللغة العربية، مركز الدراسات و الأبحاث الاقتصادية و الاجتماعية، الجامعة التونسية، 1981، عدد5، 152.

[24]- علي أحمد مدكور: تدريس فنون اللغة العربية، دار الشواف للنشر و التوزيع، الرياض، 1991، ص 327.

[25]- خاطر محمود رشدي و آخرون: طرق تدريس اللغة العربية و التربية الدينية في ضوء الاتجاهات التربوية الحديثة، دار المعرفة، القاهرة، ط2، 1983، ص199.

[26]- ينظر ابن مضاء: الرد على النحاة، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، 1982.

[27]- مصطفى غلفان: اللسانيات العربية (أسئلة المنهج)، دار ورد الأردنية للنشر و التوزيع، ط1، 2013، ص133.

1/ مقاربات التراث التي لا تنتسب صراحة للسانيات

يمثّل هذا النوع من القراءة للتراث التيارُ الذي انتقد النحو و منهجه محاولا وضع بناء جديد للنحو العربي على شكل إصلاح و تيسير في التأليف النحوي مع تخليص الكتب النحوية من العبارات الغامضة و الاختلافات النحوية و إعادة صياغتها بأسلوب سهل واضح. جاءت المحاولة الأولى لعرض النحو العربي عرضا مختلفا على يد عالم من علماء الأزهر هو "رفاعة الطهطاوي" الذي ألّف كتابا أسماه "التحفة المكتبية لتقريب اللغة العربية"[28]. و هذا النوع من الكتب مازال يظهر، إلى يومنا هذا، بمسميات و عناوين مختلفة مثل "النحو الواضح" و "النحو الميسر" و "النحو العصري" و هي كتب تدعو إلى التيسير و هي تُقَدَّم لطلاب المدارس و الجامعات لغاية تعليمية؛ و الذي يمكن قوله في هذا المجال أن هذه الكتب لا يتعدى الإصلاح فيها التغيير في التبويب و الأسلوب و لكنها لا تمس الجوهر أي لا تقترب من الأصول النظرية للتراث النحوي.

و ما ينبغي التنبيه إليه أن حركة الإصلاح هذه لم تقف عند حدود إعادة التبويب و تبسيط أطر المعالجة النحوية بل واكبتها حركة أخرى نادت بإحياء النحو عن طريق إعادة النظر في أصوله و مبادئه؛ و من أظهر ممثليها إبراهيم مصطفى و كتابه" إحياء النحو" الذي يعدّ بحق أول مقاربة نقدية شاملة للتراث النحوي؛ حيث يلتقي إبراهيم مصطفى مع ابن مضاء في دعوته التيسيرية لإلغاء التقديرات العاملية محاولا وضع بناء جديد للنحو العربي؛ و في رأيه أن النحاة حين قصروا النحو على البحث في أواخر الكلم قد أخطئوا إلى العربية من وجهين[29]:

1. حين حددوا النحو حرموا أنفسهم و حرمونا من الإطلاع على كثير من أسرار العربية و أساليبها المتنوعة و مقدرتها في التعبير فبقيت هذه الأساليب مجهولة.
2. رسموا للنحو طريقا لفظيا، فاهتموا ببيان الأحوال المختلفة للفظ من رفع و نصب و جر و لم يشيروا إلى ما يتبع كل وجه من أثر في رسم المعنى و تصويره.

أما مهدي المخزومي فإنه يلتقي مع أستاذه إبراهيم مصطفى في موقفه السلبي إزاء النحو و الدعوة إلى إعادة قواعد التوجيه في النظرية النحوية العربية القديمة أليس هو القائل: «ليس من وظيفة النحوي الذي يريد أن يعالج نحوا للغة من اللغات أن يفرض على المتكلمين قاعدة أو يخطئ لهم أسلوبا. لأن النحو...عارضة لغوية تخضع لما تخضع له اللغة من عوامل الحياة و التطور...و النحو الحق هو الذي يجري وراء اللغة يتتبع مسيرتها و يفقه أساليبها»[30]؛ إن هذه المحاولات و التي تتخذ إشكالية إعادة توجيه القواعد النحوية كمبدأ أساسي في تحديث طرق تعليم اللغة العربية وجدت صدى عند كثير من الباحثين و اللغويين المحدثين أمثال أحمد عبد العظيم عبد الغني الذي يقول: «من يعايش النحاة يدرك أن من مألوف صنعتهم الحكم على الشيء الواحد في الموقع الواحد بالإعراب و البناء أو التعريف و التنكير أو الاسمية و الحرفية...و يقود منطق الأمور إلى أن القواعد النحوية التي خلّفها لنا أسلافنا من النحاة تفقد خصائص الصناعة المنضبطة...و تتخلف فيها ضوابط العلم»[31]و يقول علي أحمد مدكور: «و النتيجة أن النحو بالشكل الذي يؤلّف عليه و بالطريقة التي يدرس بها قد أصبح علما عقيما، يدرسه الرجل و يشتغل به سنين طوالا، ثم لا يخرج منه إلى شيء من إقامة اللسان ، و الفهم عن العرب»[32] و يقول إسماعيل مظهر: «...و ما القيود التي اخترعها النحاة إلا وسائل تذرعوا بها إلى حفظ كيان اللغة، و لا شك أن الوسائل تتغير بتغيّر الأزمان»[33]

---

[28]- محمد عبد الرحمن الرمالي: العربية و الوظائف النحوية، دار المعرفة الجامعية، الأزاريطة، مصر، 1996، ص13.

[29]- إبراهيم مصطفى: إحياء النحو، لجنة التأليف و الترجمة و النشر، 1937، ص43.

[30]- مهدي المخزومي: في النحو العربي نقد و توجيه، دار الرائد العربي، بيروت-لبنان، ط2، 1986، ص19.

[31]- أحمد عبد العظيم عبد الغني: القاعدة النحوية (دراسة نقدية تحليلية)، دار الثقافة للنشر و التوزيع، القاهرة، 1990، ص11.

[32]- تدريس فنون اللغة العربية ص 324.

[33]- إسماعيل مظهر: تجديد العربية(بحيث تصبح وافية بمطالب العلوم و الفنون)، مكتبة النهضة المصرية، دط، دت، ص5.

غير أن هذه المحاولات لم تسهم بشكل مباشر في حلّ صعوبات النحو على دارسيه؛ إذ هي عبارة عن دعوات لنقد مفاهيم النحو الإجرائية خاصة نظام العوامل الذي اعتبرته مسلمات ماقبلية فُرضت على الدرس النحوي. و هي فضلا عن ذلك ليس لها تصور واضح عما تقتضيه التطبيقات التربوية من مبادئ أساسية في صناعة التعليم؛ فمحاولات تيسير النحو لم تفعل شيئا يعيد للنحو العربي حيويته بحيث تحبب للمتعلمين درسه و للمعلمين تدريسه؛ فهي مجرد قضايا بحثية حاول مؤلفوها الوصول إلى حلول مناسبة.

2. مقاربات التراث التي تنتسب للسانيات : لم تظهر المقاربات الحقيقية للتراث إلا في الثلث الثاني من القرن العشرين و هي تُمثّل إشكالية هامة مازالت تشغل تفكير عدد كبير من الباحثين و اللغويين في العالم العربي[34]، حيث ارتبطت هذه المقاربات بتجديد النظرية النحوية لتصبح نظرية معاصرة تواكب التغيرات و التطورات اللسانية و مناهجها الحديثة.

و لهذا بات من القضايا الأساس التي تمحور حولها البحث اللساني العربي المعاصر علاقةُ النحو بالنظريات اللسانية الحديثة.

و على هذا الأساس أُعيد فتح باب النحو، بعد أن أغلق باب التقعيد في القرن الرابع الهجري، من أجل إخضاع التراث اللغوي العربي للفحص اللساني المعاصر حتى يتم تطويعه لخدمة أهداف الحداثة. و نتج عن هذا الإخضاع نظريات جديدة أعادتْ بلورة التراث وفق نظام جديد يستند إلى المناهج اللسانية الحديثة. و السؤال الذي يجب طرحه في هذا المجال هو: ما علاقة النحو باللسانيات؟

علاقة المنظومة النحوية باللسانيات : تُعدّ العلاقة بين النحو العربي و اللسانيات من القضايا الأساس التي أثارت انتباه الفكر اللساني العربي الحديث؛ حيث أكّد المهتمون باللغة العربية على ضرورة دراسة اللغة العربية دراسة جديدة تستمد إطارها و مقاييس البحث فيها باعتماد المنهج اللغوي الحديث. يقول أحد اللغويين: «علينا أن نعمل على تجديد النحو بأن نستخدم في بحث اللغة كل الوسائل العلمية التي تمكن من درس اللغة وفقها و كشف أسرارها كما فعل المتقدمون»[35]. و تتوزع آراء اللسانيين العرب تجاه التعامل مع اللسانيات و توظيفها إلى طائفتين[36]:

- طائفة يدعو أصحابها إلى التراث اللغوي قائلين إنه لا يمكن قيام أي حركة لسانية حديثة يريدها العرب في التاريخ الحديث إلا إذا استلهمت أعمالها و مناهجها من النبع الأصلي لهذا التراث اللغوي بأبعاده الصوتية و النحوية و الدلالية.
- أما الطائفة الثانية فتضم المؤيدين للسانيات باعتبارها علما قائما بذاته مستقلا كليا عن التراث اللغوي العربي، و يدّعي هؤلاء في نظر مازن الوعر«أن فترة التراث اللغوي العربي و مناهجه هي فترة تاريخية قد انتهت و ينبغي علينا أن ندرسها ضمن إطارها التاريخي فقط»[37]

من حق متتبع هذه المفاهيم اللسانية الحديثة في علاقتها بالنظرية النحوية القديمة أن يتساءل: كيف نعيد صوغ التراث و كيف استفاد تعليم اللغة العربية من النظريات اللسانية الحديثة و ما مدى فاعليتها في تقويم اللسان و الكتابة؟

بإمكاننا الإجابة عن هذه الأسئلة من خلال التأكيد على ثلاثة اتجاهات معاصرة رافقت نضج المناهج اللسانية الحديثة ، حيث ظهرت مشاريع نظريات نحوية معاصرة استوحى بعضها المنهج البنيوي و تمثل بعضها المنهج التوليدي التحويلي و اتخذ بعضها الآخر المنهج الوظيفي إطارا نظريا له.

---

[34]- عز الدين مجدوب: المنوال النحوي العربي (قراءة لسانية جديدة)، دار محمد علي الحامي للنشر و التوزيع، الجمهورية التونسية،ط1، 1998، ص13.

[35]- مصطفى غلفان: اللسانيات العربية ص136.

[36]- ينظر مازن الوعر: قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث، دار طلاس للنشر و التوزيع، دمشق، ص353.

[37]- قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث ص353.

فقد برزت ضمن الاتجاه الأول كتابات لسانية داعية إلى تحديث النحو و عصرنته انطلاقا من استلهام المنطلقات الإجرائية للمنهج البنيوي؛ من ذلك أفكار من سموا بالوصفيين أمثال أنيس فريحة من خلال كتابه "في اللغة العربية و بعض مشكلاتها"، و ريمون طحان في مؤلفه "اللسانيات العربية"، و إبراهيم السامرائي في كتابه "الفعل زمانه و أبنيته" و شوقي ضيف في كتابه "تجديد النحو" الذي دعا فيه إلى تجديد النحو و تيسيره ملاحظا أن جميع البلاد العربية تشكو من أن الناشئة فيها لا تحسن النطق بالعربية نطقا سليما، و رأى أن مرجع ذلك هو النحو الذي يرهق المتلقي بكثرة أبوابه و تفريعاته و صيغه الافتراضية التي لا تجري في الاستعمال اللغوي[38]. أما تمام حسان فإنه يُعدّ صاحب أوفى قراءة للتراث النحوي العربي من خلال اثنين من تآليفه خصصهما لدراسة التراث و تقييمه و هما " اللغة العربية معناها و مبناها" ثم "الأصول دراسة في الأسس الإبستمولوجية للفكر اللغوي العربي " و هما محاولتان إصلاحيتان للنحو العربي في ضوء مناهج البحث اللغوي الوصفي أو مشروع قراءة للتراث اللغوي العربي من وجهة نظر الدراسات اللسانية الحديثة. يقول تمام حسان في تقديمه لكتاب " اللغة العربية معناها و مبناها: «ينبغي لهذا الكتاب أن يبدأ عهدا جديدا في فهم العربية الفصحى- مبناها و معناها- و أن يساعد على حسن الانتفاع به لهذا الجيل و ما بعده من أجيال»[39].

و في الاتجاه البنيوي نفسه نجد الاتجاه المدافع عن النظرية النحوية القديمة الذي يرى أن أيّ محاولة لتأسيس أيّ نظرية نحوية ينبغي أن تنطلق من إعادة قراءة أعمال اللغويين القدامى؛ و من هؤلاء عبده الراجحي و بخاصة كتابه " النحو العربي و الدرس الحديث" و نهاد الموسى و كتابه "نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث". و أخيرا محاولات عبد الرحمن الحاج صالح الهادفة إلى تأسيس مدرسة خليلية حديثة تستلهم نظريتها من أعمال الخليل بن أحمد الفراهيدي و تلميذه سيبويه.

أما الاتجاه التوليدي التحويلي و أظهر ممثليه ميشال زكريا من خلال كتبه الرائدة في قراءة التراث النحوي في ضوء المدرسة التوليدية التحويلية نحو كتابه " الألسنية التوليدية التحويلية و قواعد اللغة العربية" و كذا كتابه "الجملة البسيطة" ثم خليل عمايرة و كتابه "في نحو اللغة العربية و تراكيبها" انتهاءً بعبد القادر الفاسي الفهري الذي يشكل نموذجا متميزا في اللسانيات العربية المعاصرة، من حيث إن كتاباته قد شكّلت نواة لمشروع نظرية مكتملة طورها الباحث في إطار النظرية التوليدية التحويلية و طوّعها للنحو العربي بأصالة و اقتدار؛ إذ كان للفاسي الفهري دور في تنمية الخطاب اللساني العربي المعاصر و تطويره نحو الأفضل بنقده لخطاب اللسانيات العربية. و طبيعي أن يشمل هذا التطوير تحليله اللغة العربية في إطار النظرية التوليدية التحويلية التي يتبناها. و رغم أن هذه النظرية تُعدّ من الأنحاء الجديدة المتطورة التي لها مردودية علمية عالية[40] إلا أنها لا ترقى إلى مستوى نظرية النحو الوظيفي التي نادى بها أحمد المتوكل و طوّعها لدراسة النحو العربي لسببين اثنين: أولهما أنها تقتصر في تحليلاتها على الجملة دون النص و الخطاب. و ثانيهما موقف الفاسي الفهري من التراث، فلقد رفض الرجوع إلى تحليلات اللغويين و النحاة القدماء بدعوى «أن لا ضرورة منهجية أو منطقية تفرض الرجوع إلى فكر الماضي و تصنيفاته و مفاهيمه لمعالجة مادة معينة»[41].

نصل في الأخير إلى النظريات الوظيفية التي أطرت البحث اللساني و أهمها ثلاث نظريات: النظرية الفيرثية و النظرية النسقية لهاليداي ثم نظرية النحو الوظيفي لصاحبها سيمون ديك و التي اتخذها الباحث اللساني المغربي أحمد المتوكل إطارا نظريا لأبحاثه و حاول من خلالها أن يرسم معالم نظرية وظيفية للنحو العربي اعتبرها هي البديل المقترح و الصالح لإعادة قراءة النظرية النحوية القديمة.

---

[38] - شوقي ضيف: تيسير النحو التعليمي مع نهج تجديده، دار المعارف، مصر، 1986، ص21.

[39] - تمام حسان: اللغة العربية معناها و مبناها، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1973، ص5

[40] -Anne abeillé : les nouvelles syntaxes, grammaires d'unification et analyse du français, paris, 1993, p 41.

[41] - عبد القادر الفاسي الفهري: اللسانيات و اللغة العربية، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 1985، ص60.

نظرية النحو الوظيفي

من أهم النظريات اللسانية ذات الوجهة الوظيفية التداولية نظرية "النحو الوظيفي" التي جاء بها اللساني الهولندي "سيمون ديك" (simon dick) سنة 1978. و النحو الوظيفي هو النحو الذي لا يقتصر على الدور الذي تؤديه الكلمات أو العبارات في الجملة أي الوظائف التركيبية (أو النحوية: كالفاعل و المفعول...)، لأن هذه الوظائف لا تمثل إلا جزءًا من كل تفاعل مع وظائف مقامية (أو تبليغية: الوظائف الدلالية و التداولية)، بحيث تترابط الخصائص البنيوية للعبارات اللغوية بالأغراض التبليغية التواصلية التي تستعمل هذه العبارات وسيلة لبلوغها. و يمكن توضيح ذلك على نحو الترسيمة الآتية:

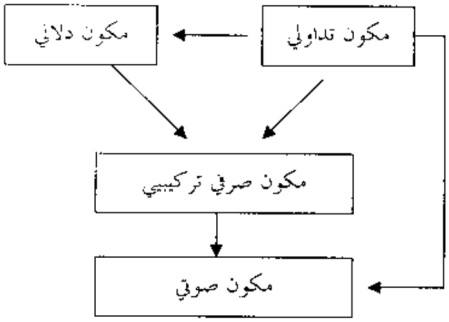

ولذلك يمكننا القول إن النحو الوظيفي بمثابة نظرية موسعة تكامل فيها النحو واللسانيات التداولية. على هذا الأساس يندرج النحو الوظيفي من حيث أهدافه المنهجية في زمرة الأنحاء المؤسسة تداوليا التي تتخذ موضوعا لها خصائص اللسان الطبيعي البنيوية في ارتباطها بالوظيفة التواصلية[42].

و ما يجب التنبيه إليه هنا أن نظرية النحو الوظيفي تعتمد في تحليلها الإجرائي للغة مبادئ أساسية يمكن إجمالها فيما يأتي[43]:

- وظيفة اللغات الطبيعية الأساس هي التواصل
- موضوع الدرس اللساني هو وصف القدرة التواصلية (la compétence communicative) للمتكلم السامع. و المقصود بالقدرة التواصلية أن يتمكن المتعلّم من استعمال اللغة و توظيفها شفهيا و كتابيا في مختلف مجالات التواصل.
- النحو الوظيفي نظرية للتركيب و الدلالة منظور إليهما من وجهة نظر تداولية
- الكفايات التي يجب تحقيقها ثلاث: كفاية نفسية و كفاية تداولية و كفاية نمطية.
- البنية التركيبية الصرفية هي نتيجة لتفاعل أنواع ثلاثة من الخصائص: الخصائص الدلالية و الخصائص التداولية و الخصائص التركيبية.
- العلاقة بين مكونات الجملة أنماط ثلاثة: علاقات دلالية (علاقات "المنفِّذ" و " المتقبِّل" و "المستقبل" و "الزمان" و"المكان") و علاقات تركيبية (علاقة الفاعل و علاقة المفعول) و علاقات تداولية (علاقات "المبتدأ" و "الذيل" و "المنادى" و"المحور" و "البؤرة").
- ترتبط اللغة بوظيفتها ارتباطا يجعل البنية انعكاسا للوظيفة، و العلاقة القائمة بين البنية و الوظيفة تستلزم رصد الفروق القائمة بين أنماط التراكيب تبعا للأنماط المقامية التي تنجز فيها.

[42]- أحمد المتوكل: من البنية الحملية إلى البنية المكونية: الوظيفة المفعول في اللغة العربية، دار الثقافة للنشر و التوزيع، الدار البيضاء، ط1، 1987، ص5.

[43]- مصطفى غلفان: اللسانيات العربية الحديثة دراسة نقدية في المصادر و الأسس النظرية و المنهجية، جامعة عين الشق، المغرب، ص258.

دخلت هذه النظرية العالم العربي أول ما دخلت عبر جامعة محمد الخامس بالرباط حيث شُكلت "مجموعة البحث في التداوليات و اللسانيات الوظيفية"، و بفضل الباحثين المغاربة تسنى للمنحى الوظيفي أن يأخذ محله في البحث اللساني المغربي و قد تم ذلك عن طريق التعليم الجامعي و البحث الأكاديمي. فلقد شُرع في تدريس النحو الوظيفي في مستهل سنوات الثمانين بجامعة محمد الخامس بالرباط، ثم توسع تدريسه، بفضل الأساتذة اللسانيين، ليشمل جامعات أخرى خارج الوطن المغربي كجامعات الجزائر التي أصبح النحو الوظيفي فيها مقررا رسميا من قبل وزارة التعليم العالي و البحث العلمي. حيث أخذت نظرية النحو الوظيفي قسطا هاما من البحث الجامعي بالجزائر فهُيئت رسائل جامعية و أطروحات دكتوراه لا يستهان بعددها و قيمتها العلمية استهدفت وضع أنحاء وظيفية للغة العربية الفصحى. للقضايا المرتبطة بالظاهرة اللغوية موضوع الدرس انطلاقا من الأسس النظرية و المفاهيمية لنحو اللغة العربية الوظيفي و بإمكاننا توضيح هذه العملية كالآتي:

دور النحو الوظيفي في مواجهة المقاربات اللسانية الحديثة و تعزيز المرجعية التراثية للنحو العربي

و النتيجة التي نستخلصها مما سبق يمكن إجمالها في النقاط الآتية:

من أهمّ ما يعسّر النّحو على المتعلّمين ثلاثة أشياء :

أوّلا : فلسفة حملت القدماء على أن يفترضوا و يعلّلوا و يسرفوا في الافتراض و التعليل .

ثانيا:إسراف في القواعد نشأ عنه إسراف في المصطلحات.

ثالثا: إمعان في التعمّق العلمي باعد بين النحو و الأدب.

من هذا المنطلق ندعو في خاتمة هذه المداخلة إلى التمسك بالنحو لأنه العمود الفقري الذي تقوم عليه العربية الفصحى، لكن هذا لا يمنع من الدعوة إلى بعثه من جديد في عصر طغت عليه العولمة و التقدم التكنولوجي حتى تتغذى عربتنا بالنظريات اللسانية الحديثة و بخاصة نظرية النحو الوظيفي التي تزاوج بين التراث و المعاصرة أي أنها أعادت قراءة تراثنا النحوي العربي في ضوء المعطيات اللسانية للنحو الوظيفي؛ و لعل هذه الدعوة ستكون حافزا لتخليص النحو من العيوب سالفة الذكر بحيث تبعده عن الافتراضية و القواعد التعليلية و تقارب بين أصوله الثابتة و المتحولة.

مراجع البحث:

1. إبراهيم مصطفى: إحياء النحو، لجنة التأليف و الترجمة و النشر، 1937
2. أحمد عبد العظيم عبد الغني: القاعدة النحوية (دراسة نقدية تحليلية)، دار الثقافة للنشر و التوزيع، القاهرة، 1990
3. أحمد المتوكل: من البنية الحملية إلى البنية المكونية: الوظيفة المفعول في اللغة العربية، دار الثقافة للنشر و التوزيع، الدار البيضاء، ط1، 1987
4. إسماعيل مظهر: تجديد العربية(بحيث تصبح وافية بمطالب العلوم و الفنون)، مكتبة النهضة المصرية، دط، دت
5. أبو البركات الأنباري: الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين و الكوفيين ،تح: محمد محيي الدين عبد الحميد،ط4 ،دار إحياء التراث العربي1961

6. أبو البقاء العكبري: اللباب في علل البناء و الإعراب، تح غازي مختار طليمات، دار الفكر العربي المعاصر، بيروت- لبنان، ط1، 1995
7. تمام حسان: اللغة العربية معناها و مبناها، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1973
8. جلال الدين عبد الرحمان السيوطي ،الاقتراح في علم أصول النحو، تح محمد حسن إسماعيل الشافعي،دار الكتب العلمية ،بيروت- لبنان،ط 1 ،1998
9. ابن جني أبو الفتح عثمان: الخصائص، تح محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، 1995
10. الحاج صالح (عبد الرحمن): المدرسة الخليلية الحديثة و مشاكل علاج العربية بالحاسوب، محاضرة مرقونة – ألقيت بملتقى اللسانيات بكلية التربية بجامعة الرباط / المغرب /، 1990
11. حسن عون: تطور الدرس النحوي، معهد البحوث و الدراسات العربية، القاهرة، 1970
12. حسني عبد البارى عصر: الاتجاهات الحديثة لتدريس اللغة العربية، مركز الإسكندرية للكتاب، مصر، 2000
13. خاطر محمود رشدي و آخرون: طرق تدريس اللغة العربية و التربية الدينية في ضوء الاتجاهات التربوية الحديثة، دار المعرفة، القاهرة، ط2، 1983
14. زهيرة قروي: المصطلحات الصوتية و النحوية عند البصريين في ضوء اللسانيات الحديثة، أطروحة دكتوراه دولة في اللسانيات، جامعة 01 قسنطينة، الجزائر،2007
15. زهيرة قروي: المرتكزات المعرفية للفظ النحو في خلفيات التفكير العربي، مجلة كلية الآداب، جامعة حلوان، العدد 30،2011
16. شوقي ضيف: تيسير النحو التعليمي مع نهج تجديده، دار المعارف، مصر، 1986
17. عبد السلام المسدي: الفكر العربي و الألسنية، اللسانيات و اللغة العربية، مركز الدراسات و الأبحاث الاقتصادية و الاجتماعية / تونس /، ع(04)، 1985
18. عبد القادر الفاسي الفهري: اللسانيات و اللغة العربية، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 1985
19. عز الدين مجدوب: المنوال النحوي العربي (قراءة لسانية جديدة)، دار محمد علي الحامي للنشر و التوزيع، الجمهورية التونسية،ط1، 1998
20. علي أحمد مدكور: تدريس فنون اللغة العربية، دار الشواف للنشر و التوزيع، الرياض، 1991
21. علي بن مجمد بن العباس أبو حيان التوجيدي ،الإمتاع و المؤانسة ، علق عليه محمد الفاضلي ،دار الأبحاث و النشر و التوزيع /الجزائر 2007
22. مازن الوعر: قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث، دار طلاس للنشر و التوزيع، دمشق
23. محمد أحمد برانق، النحو المنهجي ، مطبعة لجنة البيان العربي
24. محمد عبد الرحمن الرمالي: العربية و الوظائف النحوية، دار المعرفة الجامعية، الأزاريطة، مصر، 1996
25. محمد عيد: أصول النحو العربي في نظر النحاة و رأي ابن مضاء و ضوء علم اللغة الحديث ، ط4،عالم الكتب القاهرة / مصر
26. مصطفى غلفان: اللسانيات العربية (أسئلة المنهج)، دار ورد الأردنية للنشر و التوزيع، ط1، 2013
27. ابن مضاء: الرد على النحاة، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، 1982.
28. مهدي المخزومي: في النحو العربي نقد و توجيه، دار الرائد العربي، بيروت-لبنان، ط2، 1986
29. نهاد الموسى: مقدمة في علم تعليم اللغة العربية، ضمن سلسلة اللسانيات في خدمة اللغة العربية، مركز الدراسات و الأبحاث الاقتصادية و الاجتماعية، الجامعة التونسية، 1981
30. ابن يعيش موفق الدين ، شرح المفصّل ،تح: الدكتور فخر الدين قباوة ،ط1 ،المكتبة العربية ،حلب سوريا 1983

[1] -Anne abeillé : les nouvelles syntaxes, grammaires d'unification et analyse du français, paris, 1993, p 41.